

الصبر أوسع عطاء



سِرِّهِ مُحَمَّدٍ



المقدمة

الصبرُ خلقٌ وصفةٌ أساسيةٌ في حياة المؤمن، يُعرفُ به حقيقةُ الإيمانِ وحسنُ اليقينِ بالله، وقال النبي ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»؛ أي: ما من الله على أحدٍ بعطاءٍ من رزقٍ أو غيره خيراً وأوسع من الصبر؛ لأنَّ الإنسان إذا كان صبوراً تحمَّل كل شيء؛ إن أصابته الضراءُ صبر، وإن أعرَض له الشيطان بفعل المحرم صبر، وإن خذله الشيطان عمّا أمر الله صبر، فإذا كان الإنسان قد منَّ الله عليه بالصبر، فهذا خيرٌ ما يُعطاه الإنسان، وأوسع ما يُعطاه؛ ولذلك تجدُّ الإنسانَ الصبورَ لو أُوذِيَ من قِبَل الناس، لو سمع منهم ما يكره، لو حصل منهم اعتداء عليه، تجده هادئ البال، لا يتصلَّب، ولا يغضب؛ لأنه صابرٌ على ما ابتلاه الله به؛ فلذلك تجدُّ قلبه دائماً مطمئناً، ونفسه مُستريحة، ولهذا قال الرسول ﷺ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»؛ لأنه به يكون كفو الأذى عن الخلق واحتمالُ الأذى منهم، وهذا من عزائم الأمور التي تضيقُ منها أكثر الصدور، فخلقُ بلغت قيمته أعلى الدرجات لا بُدَّ أن نتعرفَ عليه وعلى أنواعه وحالاته وفضائله.

عناصر الموضوع

خُلُق الصبر.

الصبرُ ركيزةُ الخُلُق الحسن.

حَتَّ رسولُ الله ﷺ على الاستغفاب والاستغناء والصبر.

كيفيةُ التخلقِ بهذه الأَخلاقِ الفاضلة؟

أوسعُ عطاءً.

مطلقُ الخيريةِ في الصبر.

فضائلُ الصبر.

ما حالنا اليوم مع الصبر؟

تحديدُ أسبابِ نفاذِ الصبر.

إرشاداتُ تُعينُ على الصبر.



إنَّ الصَّبْرَ خَلْقٌ وَعِبَادَةٌ قَدْ أَوْجَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَهِيَ ضَرُورِيَّةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ يَعْيشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَخْتَلِطُ بِالنَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

وأصل هذه الكلمة هو: المنع والحبس، فالصبرُ حبسُ القلبِ عن الجزع، واللسانِ عن التشكي، والجوارحِ عن لطمِ الحدودِ وشقِّ الثيابِ ونحوهما.

وقد أوجبه اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِالْأَمْرِ بِهِ، وَبِتَعْلِيْقِ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ حَاجَةَ الْمُسْلِمِ إِلَى هَذَا الْخَلْقِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ - «بَيْنَ أَمْرٍ يَجِبُ عَلَيْهِ امْتِثَالُهُ وَتَنْفِيذُهُ، وَنَهْيٍ يَجِبُ عَلَيْهِ اجْتِنَابُهُ وَتَرْكُهُ، وَقَدْرٍ يَجْرِي عَلَيْهِ اتِّفَاقًا، وَنِعْمَةٍ يَجِبُ عَلَيْهِ شُكْرُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهَا، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ لَا تَفَارِقُهُ فَالصَّبْرُ لَازِمٌ لَهُ إِلَى الْمَمَاتِ» (٢).

(١) [آل عمران: ٢٠٠]

(٢) (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) لابن القيم (ص: ١٠١).

والصبرُ ليسَ فقط على ما يكرهُ، بل على ما يُحِبُّ ويهوى، كالصحةِ والسلامةِ
والجاهِ والمالِ وأنواعِ الملاذِ المباحةِ، بأن لا يركنَ إليها، ولا يغرَّ بها، ولا تحملهُ على
البطْرِ والفرحِ المذمومِ، وبألا ينهمك في نيلها، ويبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب
إلى أضدادها، وبأن يصبر على أداء حق الله فيها، وألا يصرفها في الحرام، قال عبد
الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»^(١).

فالصبرُ سمةٌ ينبغي أن تكون لازمةً لكل مسلم؛ لأنَّ تحقيقَ العبادةِ واستقامةِ
السلوكِ أمرانِ متربطان بهِ ارتباطاً وثيقاً، فبدأ معنا الصبرُ وصبرنا ونحن أطفال
على تعلمِ الكثيرِ من المهاراتِ الحركيةِ واللغويةِ، وصبرنا وانتظرنا إدخالنا المدرسةِ،
وما تبعها من ضربٍ وأذى، وعلى ما عايناهُ في المراهقةِ، وصبرنا في شبابتنا على
خدمةِ الأسرةِ وعلى الدراسةِ وما يصاحبها من متطلباتٍ وسهرٍ وتعبٍ، ثم انغمسنا
في الصبرِ الحقيقي على طلبِ الرزقِ وتأمينِ السيارةِ والسكنِ، ومن ثم تأسيسِ
الأسرةِ، ثم الصبرِ وسعةِ البالِ في مرحلةِ الرشدِ على الإشكالاتِ الأسريةِ وعلى
تربيةِ الأبناءِ وتأهيلهم اجتماعياً، ثم الصبرِ في مرحلةِ الشيخوخةِ على ما قد يعاينهُ
الإنسانُ من أمراضٍ أو إشكالاتٍ صحيةٍ.

إنَّ الإنسانَ ينسى أو يتناسى الصبرَ في كثيرٍ من الأمورِ أو الإشكالاتِ التي
تواجههُ في الحياةِ، فتزدادُ هذه الأمورُ سوءاً ويصعبُ حلها..

والصبرُ أنواعٌ كثيرة، ردها العلماءُ إلى ثلاثة:

١. صبرٌ على فعلِ المأمورِ.
٢. وصبرٌ على تركِ المحذورِ.
٣. وصبرٌ على القضاءِ المقذورِ.

(١) كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ط دار ابن كثير، (ص: ٦٤).

وليست هذه الأنواع «الأمرُ والنهي والقدر» منحصرة في معاملة الله تعالى، بل هي متعدية إلى معاملة الناس أيضاً؛ لأنَّ من الأمر والنهي ما هو متعلق بحقوق المسلمين أفراداً وجماعات، ولأنَّ من البلاء ما يُصيبُ الناسَ عن طريق الناس، بل وإخوانه، بل وأقربُ الناسِ إليه أحياناً، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾^(١)، وقال ﷺ: «المُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»^(٢).

حتى نصبرَ على ما بدرَ من أزواجنا وأبنائنا وأقاربنا وجيراننا وأصدقائنا وزملائنا في العملِ ومن يعملُ لدينا، عندما يعكرونَ مزاجنا ونُصاب بالضيقة، فنعالجُه بالصبر؛ لا بُدَّ أن نتحلَّى بخلقِ الصبر؛ فهو ضرورةٌ حياتيةٌ يحتاجها الكلُّ في حياته اليومية؛ ولذلك فإنه من غيرِ الصبرِ لا يُمكنُ للواحدِ منا أن يعيشَ مع الآخر، ومن أجل ذلك فإنَّ خلقَ الصبرِ ضروريٌّ للإنسان.

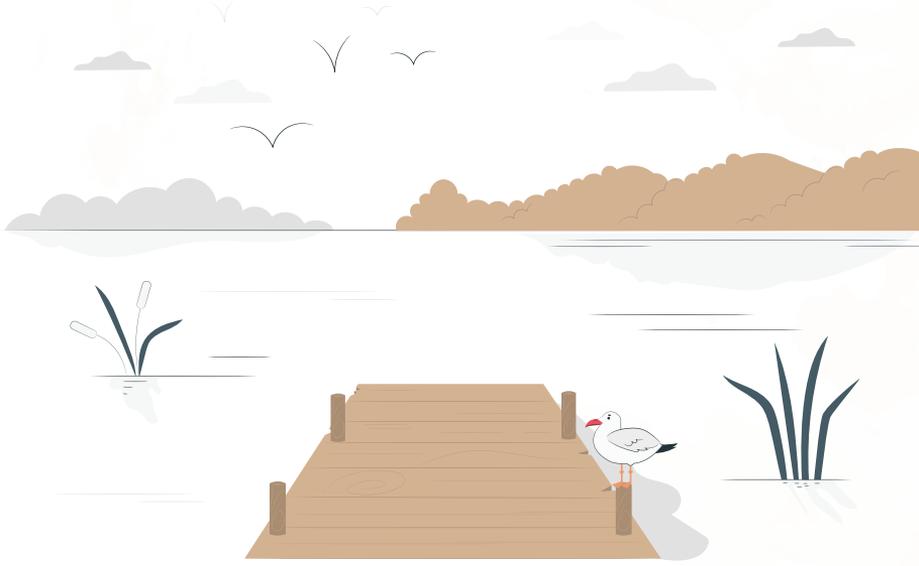
والصبرُ من صفاتِ المؤمنين الصادقين، وهو من أهمِّ الأخلاقِ الإسلامية؛ لذا فقد ذكره اللهُ سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وارتبطت آياتُ الصبرِ بمواقفٍ إيمانية كثيرة، والثوابُ الجزيلُ للصابرين، مما يدل على أهمية وقيمة الصبرِ.

وأما مفهومُ الصبرِ فقد شملَ حياةَ الإنسانِ كلها وجميعَ أحواله، حتى في الرخاءِ والنعمةِ هناك صبر.

(١) [الفرقان: ٢٠]

(٢) الراوي: شيخٌ من أصحابِ النبي ﷺ | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم: ٢٥٠٧ | خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الصبرُ ركنةُ الخلقِ الحسن



لو نظرَ المسلمُ إلى مفهومِ الصبرِ لعلمَ أنَّ هذا الخلقَ العظيمَ له أثرٌ كبيرٌ على حياته كلها، فالصبرُ هو أساسُ كلِّ فضيلةٍ وخلقٍ حسنٍ يتخلقُ به المسلمُ، وقد قيلَ عن حقِّ أنَّ الصبرَ ركنةُ كلِّ خلقٍ حسنٍ، فعلى المسلمِ أن يتحلى بالصبرِ حتى يصيرَ سجيَّةً له، قال ابن عيينة: «كان يقال: يحتاجُ المؤمنُ إلى الصبرِ كما يحتاجُ إلى الطعامِ والشرابِ»^(١).

الصبرُ من الأخلاقِ التي حضَّ عليها القرآنُ الكريمُ، وقد جاءَ في مواضع عدة من كتابِ الله تعالى؛ وذلك لأهميته في حياة الإنسان، حيث إنَّ جميعَ الأخلاقِ نقطةُ ارتكازها الصبرُ، فالرحمةُ مثلاً تحتاجُ للصبرِ، وإلا ما رحمت الأُمُّ وليدها ولا تحملت المشقةَ في تربيته، ولا رحمَ الأبُ أبناءَهُ وتحملَ مشقةَ العملِ للإنفاقِ عليهم، ولا تحملَ الأبناءُ وبروا آباءَهُم في كبرهَم، والعدلُ -والعملُ به- يحتاجُ للصبرِ، والصدقُ الدائمُ يحتاجُ للصبرِ، وكلما قلبتَ خُلُقًا أو فضيلةً وجدتَ أساسها وركيزتها الصبرَ.

(١) [موسوعة ابن أبي الدنيا، ٣٧/٤].

والإيمان بقضاء الله وقدره أصله الصبرُ وأساسه الرضا، والقناعة؛ صبرٌ على القدر الكافي من الدنيا، والحلم؛ صبرٌ عن إجابة داعي الغضب، والوقار؛ صبرٌ عن إجابة داعي العجلة والطيش، والشجاعة؛ صبرٌ عن داعي الفرار والهرب، والعمو؛ صبرٌ عن إجابة داعي الانتقام، والجود؛ صبرٌ عن إجابة داعي البخل، والكيس؛ صبرٌ عن إجابة داعي العجز والكسل، والعفة؛ صبرٌ عن شهوة الفرج والنظر المحرم، وكتمان السر؛ صبرٌ عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام، والزهد؛ صبرٌ عن فضول العيش، وهكذا يدخل الصبرُ في كلِّ خلقٍ حسن.

ومن دون الصبر لا يمكن الحفاظ حتى على النفسِ صِحَّةً وعقلًا وبقاءً؛ فإنَّ في الصبرِ علاجًا لأمراضٍ شتى وأعراضٍ مختلفة يُصابُ بها الأفراد والجماعات، فهو علاجٌ من حالات الغضب والاستعجال والانتقام، وبه يسلم المرء من اليأس والقنوط والكسل، وغيرها من الحالات السلبية الناجمة عن ألوان الفتن والشهوات والأحزان، ومظاهر الفقر والقهر، وأساليب المكر والخيانة والطغيان، وغير ذلك من الأمور التي إن لم يصطدم بها العبد فهو يراها ويصيبه من شررها، ولا طاقة له بدفعها، ولا باجتناِب تأثيرها فيه.

ولو فصلنا في كلِّ خلقٍ لوجدناه يحتاج للصبر حتى يُدَومَ عليه ويتحمل الأذى من أجله مهما يكن؛ ولذلك نجد الإنسان الغضوب لا يتحمل أيَّ شيءٍ ولا يصبرُ على شيءٍ، نجده وقد نزعَت منه كلُّ الأخلاق الحمودة؛ لذلك أوصانا الحبيبُ بالأ نغضب، فقد جاءه رجلٌ وقال: «أوصني»، فقال ﷺ: «لا تغضب»، فردَّدَ مرارًا «لا تغضب»^(١).

فلو فكرَ العبدُ قليلاً وتأنَّى واستخدمَ الأدوات التي تُساعدُ على الصبرِ من خلال تدبير القرآن وتطبيق ما جاء فيه اتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، لعاشَ عيشةَ السعداءِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ الصبرَ أعظمَ عطاءٍ يهبه اللهُ سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٥/ ٢٢٦٧)، رقم: (٥٧٦٥).

حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْإِسْتِعْفَافِ وَالِاسْتِغْنَاءِ وَالصَّبْرِ



الصَّبْرُ مِنْ شِيَمِ الصَّالِحِينَ، وَهُوَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْخَيْرِ، لَا يُعْطِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عِنْدَهُ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الْجَنَّةُ، وَهُوَ عَادَةٌ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُتَّقِينَ، وَحَلِيَّةُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ.

ووردَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»، فَبالصَّبْرِ تُبْلَغُ الْمَرَاتِبُ الْعَالِيَةُ، وَتُدْرِكُ الْفَضَائِلُ وَالْخَيْرَاتُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقد جاءَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، حَتَّى نَفَدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ،

وَمَنْ يَتَّصِرَ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»^(١).
قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله

كان من خلق الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- أنه لا يُسأل شيئاً يجده إلا أعطاه، وما عهدَ عنه أنه ﷺ منع سائلاً، بل كان يُعطي عطاءً من لا يخشى الفقر، ويعيشُ في بيته عيشَ الفقراء، وربما ربطَ على بطنه الحجرَ من الجوع، فهو عليه الصلاة والسلامُ أكرم الناسِ وأشجع الناسِ^(٢).

وفي الحديث:

جاءَ الأنصارُ -وهم الأوسُ والخزرجُ الذين أدركوا النبي ﷺ فآمنوا به، فهم الذين نصرُوا دينَ الله عزَّ وجلَّ، ونصروا رسوله ﷺ حيثُ آووه- سألوا رسولَ الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذَ ما عنده.

وهذا من شمائله ﷺ، حيثُ كانَ أكرمَ الناسِ ﷺ، فلربما سأله الرجلُ فخلعَ ثوبه، أو جبتَه، أو رداءه، فأعطاهُ إياه، فكان لا يردُّ سائلاً.

فلما نفذَ ما في يده أخبرهم أنه ما من خيرٍ يكونُ عندهُ فلن يدَّخره عنهم؛ أي: لا يمكنُ أن يدَّخر شيئاً عنهم فيمنعهم، ولكن ليسَ عندهُ شيء.

حَثَّ النبي ﷺ على الاستعفافِ والاستغناءِ والصبرِ، فقال: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَّصِرَ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ».

هذه ثلاثة أمورٍ وردت في الحديث:

أولاً: من يستعفف يعفُّه الله:

١. بمعنى: فمن يستعفف عمّا حرمَ الله عليه من النساءِ يعفُّه الله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ الذي يتبعُ نفسه هواها -فيما يتعلقُ بالعفة- فإنه يهلكُ والعيادُ بالله؛ يقعُ في الفاحشة.

(١) الراوي: أبو سعيد الخدري | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ١٤٦٩ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح].

(٢) ص ١٩٥ - كتاب شرح رياض الصالحين لابن عثيمين - باب الصبر.

٢. وقيل: السيئ والتاء للطلب، من يستعفف؛ أي: يطلب العفاف، الاستغناء عما في أيدي الناس.

فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستعفف يعفه الله؛ أي: يُريدُ أن يكون عفيفًا لا يحتاج إلى الناس، ولا يسأل الناس شيئًا، ولا ينظر إلى ما لديهم.

ثانيًا: ن يستغن يغنه الله:

أي: من يستغن بما عند الله عما في أيدي الناس؛ يُغنيه الله عز وجل، وأما من يسأل الناس ويحتاج لما عندهم؛ فإنه سيُبقِي قلبه فقيرًا -والعياذ بالله- ولا يستغني.

والغني غني القلب، فإذا استغنى الإنسان بما عند الله عما في أيدي الناس، أغناه الله عن الناس، وجعله عزيز النفس بعيدًا عن السؤال.

فالفقر في القلب قبل كل شيء، لربما تجد الإنسان ليس في يده إلا القليل من عرض الدنيا، ومع ذلك تجده من أغنى الناس، ولربما رأيت الرجل وهو يملك الكثير من هذه الدنيا، ومع ذلك تجد الفقر في قلبه، نسأل الله العافية.

فبعد ذلك تخلق المهاجرين والأنصار بهذا الخلق، وقد مدح الله - سبحانه وتعالى - الأنصار ومدح المهاجرين رضي الله عنهم، فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾^(١)؛ أي: بسبب التعفف، ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾^(٢)؛ يعني: الفقر يظهر في وجه الإنسان وقسماته وملامحه، وتظهر فيه الحاجة الشديدة من قسمة الوجه، ومن ثيابه، كما أن المرض يُعرف بوجه الإنسان، فتراه فتقول له: أنت اليوم مريض؛ من حاله، ومن هيئته، ومن جلسته.

فالجاهل بحال الفقراء يحسبهم أغنياء؛ أي: يظنهم أغنياء من التعفف، لا يسألون مباشرة (أعطني)، ولا بطريق غير مباشر، كأن يجلس يشرح أحواله، ولا

(١) [البقرة: ٢٧٣]

(٢) [البقرة: ٢٧٣]

يتعرض لك ويقف أمامك، أو بطريقةٍ أخرى كأن يبيع شيئاً تافهاً لا قيمة له وقصده السؤال، فهذا من المسألة، سواء كان بهذه الصيغة أم كان بتلك.

﴿لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾^(١).

الإحافُ مثل اللحاف، فاللحافُ كما أنه يشتملُ على الإنسانِ بجميعِ جوانبه، فكذلك الإحافُ في المسألة، لا يتركُ طريقةً إلا ويسألُ بها، كأنه يقول: الله يخليك أعطني، اللهم آتِ مُنفقاً خلفاً، أنا فقير، الله يخلي لك عيالك، فيلحُ بكلِّ طريقة، ويدعو لك مرةً، ومرةً يقول: أعطني مباشرة، ومرةً يقفُ أمامك، ومرةً يلحقك، فنفاه الله سبحانه وتعالى عنهم.

فالمقصودُ أنَّ العفافَ صفةً من صفاتِ الكمالِ التي ينبغي للإنسانِ أن يتحلى بها، يقولُ شيخُ الإسلامِ ابن تيمية -رحمه الله-: «استغنِ عمَّن شئت تكن نظيره، واحتجْ إلى من شئت تكن أسيره، وأحسنِ إلى من شئت تكن أميره»^(٢).

لا تحتج لأحدٍ يمنُّ عليك، المنَّةُ لله وحده لا شريك له، فالله أعطاك عقلاً، وأعطاك عافيةً، وأعطاك لساناً، وأعطاك بصراً وسمعاً، وأعطاك كلَّ ما أعطى الآخرين، فلا تنتظر من الآخرين أن يُحسنوا إليك وأن تكونَ لهم يدٌ عليك.

ثالثاً: من يتصبرَ يُصبره اللهُ:

أي: يُعطيه اللهُ الصبر.

(١) [البقرة: ٢٧٣]

(٢) الفتاوى الكبرى - فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١-٦ ج ٥.

إذا تصبّرت وحسبت نفسك عمّا حرم الله عليك، وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر، ولم تلح على الناس بالسؤال؛ فإنّ الله تعالى يُصبرك ويُعينك على الصبر، وهذا هو الشاهد من الحديث.

وقوله: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»؛ أي: وَمَنْ يُعَالِجْ نَفْسَهُ بِالصَّبْرِ وَيَتَكَلَّفْهُ عَلَى ضَيْقِ الْعَيْشِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا؛ يَمَلِّأَ اللهُ قَلْبَهُ بِهِ، وَمَنْ بَدَلَ الْأَسْبَابَ وَحَرَصَ عَلَى الصَّبْرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوقِّفُهُ لِتَحْصِيلِهِ، وَيَجْعَلُهُ يَتَّصِفُ بِهِ.

وقوله ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله»:

يعني: هو في البداية يتكلف الصبر، ليس من طبيعته أنه صبور، والناس يتفاوتون تفاوتاً كبيراً في هذا، من الناس من إذا أصابه زكّامٌ أتيته وهو يتأوه، وتظنُّ أنّ الموتَ ينتزلُ به، وإذا سألت أولاده قالوا: هو طبيعته هكذا، أدنى شيء يأتيه مباشرةً يتحول إلى شخص في غاية الجزع: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾^(١).

ولا يظهرُ ضعفُ الإنسانِ إلا إذا أصيبَ وابتلي، ومن الناس من لو أصابته كدمةٌ أو شيءٌ لرأيته ينهار.

وذلك بيان لخطأ ما عليه كثيرٌ من الناس من قناعتهم باستحالة تغيير الطباع وما جُبلَ عليه الإنسان، بينما النصوصُ الكثيرة - ومنها هذا الحديث - والحقيقة أنه بالعزم والإصرار والصبر وحسن التدریب مع صدق النية والاستعانة بالله يُغيّرُ الله من حالٍ إلى حال، فكم من رجلٍ كان معروفًا بالحمق أصبح من أحلم الناس، وآخر كان معروفًا بالبخل والشح أصبح من أسخى الناس!؛

كيفية التخلق بهذه الأخلاق الفاضلة؟



العفاف والغنى والصبر والحلم وغيرها، كل ذلك يمكن للإنسان أن يتخلقه كما قال النبي ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم»^(١).

هذا من تعليم النبي ﷺ للناس كيفية التخلق بالأخلاق الفاضلة؛ حتى يصير سجيةً، فالإنسان قليل الصبر، كيف يكون صبوراً؟

عليه أن يتصبر في البداية إذا أصابته آلام، أو أمراض، أو شدة فقر، أو شيء من المكروه، يتصبر قليلاً، ويعلم أن الجزع لا ينفعه شيئاً.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (٣٩٥ / ١٩)، رقم: (٩٢٩)؛ والبيهقي في شعب الإيمان، (٢٣٦ / ١٣)، رقم: (١٠٢٥٤).

وإذا نظرت إلى إنسانٍ يتضجرُ وهو يتألمُ من المرض، لو وجهت إليه هذا السؤال: هذا التضجرُ ماذا يُغني عنك؟ هل يرتفعُ المرض؟ الجواب: لا يرتفع، فلماذا التضجرُ؟

لو أتيتَ إلى أحدٍ من الطلاب، وهو يذاكرُ مادةً لا يفهمُ كثيرًا منها، ووجدتهُ في حالٍ من البؤس، يرفعُ صوتهُ ويتكلم، ولربما شتمَ المادة، ولربما ألحقَ ذلك بأستاذها، ولربما دعا على نفسه، ويتضجرُ ويتأوه، وهو لا يقضي شيئًا من مطلوبه، ولا يقطعُ شوطًا في كتابه، فلو سألتَه: هذا التضجر، هل ينفَعُ شيئًا؟ هل يمكنُ بهذا الضجرِ أن تفهم؟ هل يمكنُ أن تنهيَ هذا الكتابَ إذا تضجرت؟ إنما أنتَ تضرُّ نفسك، أنتَ تثبُطُ نفسك، وتُقعدُها عن العملِ الجادِّ المثمر، فلا تزيدُ نفسك إلا تعويقًا بهذا التضجر، لكن ما على الإنسانِ إلا أن يستبدلَ ذلك بابتسامة، ويوسعَ صدره قليلًا، وشيئًا فشيئًا، ثم بعدَ ذلك يفتحُ الله سبحانه وتعالى عليه ألوانَ المغاليق، ويرزقه -تبارك وتعالى- من الفهم ما لا يحتسب.

وقل مثل ذلك في الفقير -وغيره- ممن يمكنُ أن يحصلَ له شيء من انفراطِ الصبر، أو شيء من خشونةِ الأخلاق، فالإنسانُ الذي لا علمَ عنده يُمكنُ أن يتعلمَ فيكونَ عالمًا، فالعلماء ما كانوا علماءً في أول أمرهم.



وفي قوله: «وما أعطي أحدٌ عطاءَ خيراً وأوسع من الصبر».

إنَّ هذه الكلمة عليها نورُ النبوة، وهي من الكلمِ الجوامع، وينبغي أن تكونَ منهجاً للمسلم في حياته، إذا انتابه أمرٌ لم يجد له مخرجاً، فإذا تساءل ماذا أعمل؟

فتحت له هذه الكلمة كنوزَ الدنيا والآخرة، ودلته على الطريقِ في ظلمةِ الليلِ البهيم، ولو فقهَ كثيرٌ من الناسِ هذه الكلمة وما ترمي إليه، لتجاوزوا الأعضاء، ولتهاوت أمامهم أعظمُ وأعتى العقبات.

عجباً من أولئك الذين يبحثون عن الحلول لمشكلاتهم، فتستغرقهم اللحظة الحاضرة، فيقدمون على حلولٍ لم تنضج ولم يحن وقتها، فيضيفون إلى مصائبهم مصائبَ أخرى.

لو أدركوا حقيقة هذه الكلمة، لعلموا أنّ أعظم الأعمال التي يجب أن يقوموا بها من أجل حلّ تلك المعضلات هو الصبر؛ فالصبر عطاءً من الله.

في الحديث بينَ أنّه ما أعطى الله أحداً نعمةً ولا خُلُقاً كريماً أفضلَ ولا أوسعَ من الصبر؛ لأنّه يتّسع لكلّ الفضائل، فكلها تصدرُ عنه، وتعتمدُ عليه؛ من عِفّةٍ، وشجاعةٍ، ومروءةٍ وكرمٍ، وعزيمةٍ وإرادةٍ، وإباءٍ، وغيرها.

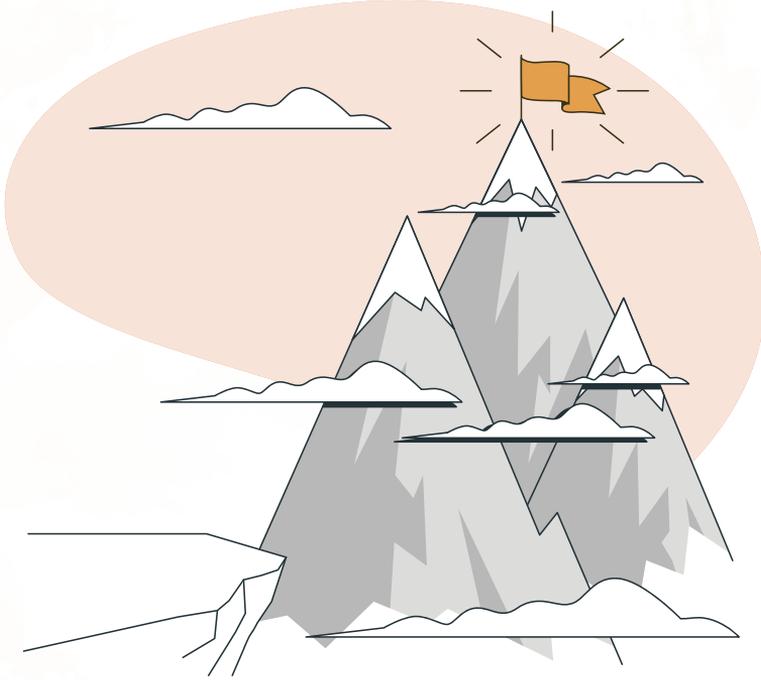
والإنسان إذا كان صبوراً تحمّل كلّ مكروهٍ بإذن الله تعالى؛ يعني: لا المال، ولا أي شيء؛ لأنه بالصبر يُحصّل جميعَ المطالب، ولا يُحصّل شيئاً من المطالب إلا بالصبر.

فإذا رُزق العبدُ الصبر، استطاع أن يستمرّ في طريقِ العبوديةِ حتى يصلَ إلى مأمَنه بإذنِ الله عزَّ وجلَّ.

فمن الناس من يبدأ -مثلاً- بقيام الليل، ويستمرُّ أسبوعاً، أو عشرة أيام، ثم يترك، أو إذا بدأ في صيام تطوّع استمرّ فترةً ثم انقطع، إذا بدأ في طلبِ علمٍ حضرَ درساً أو درسين، ثم بعد ذلك انقطع، إذا بدأ في عملٍ مشروعٍ خيري من الأعمال الخيرية، وإذا بدأ بقراءة القرآن بدأ مرةً أو مرتين ثم ترك، أو نحو ذلك تحمّس في البداية، ثم بعد ذلك أدارَ لهم ظهره وانقطع، فمثلُ هذا لا يُنتج، ولا يُحصّل شيئاً يُذكر.

فلو أن هناك من يغرسُ كل يومٍ له غرساتٍ من النخلِ أو غيرها، ثم يسقيها أسبوعاً أو أسبوعين، ثم يتركها ويغرسُ غرساً أخرى، هل يُمكن أن ينتظرَ ثمرة؟
الجواب: لا، لا يُمكن أن يحصلَ له شيء.

وهكذا في سائرِ الأمور؛ من أرادَ العلمَ احتاجَ إلى صبر، من أرادَ الدنيا والتجارة احتاجَ إلى صبر، وهكذا في كلّ الأمور؛ لأنه هو الطريقُ إلى تحصيلِ المطالبِ العالية.



ولهذا قال النبي ﷺ كما في الحديث الصحيح، وقد عجبَ النبي ﷺ من حالهم:

عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَصَابَتَهُ سَرَاءُ شَكَرٍ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتَهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

وَيَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ الْإِيمَانَ نِصْفَانِ:

نِصْفَ صَبْرٍ، وَنِصْفَ شُكْرِ، وَمَدَارُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَيْهِمَا.

(١) الراوي: صهيب بن سنان الرومي | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٢٩٩٩ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]. التخریج: من أفراد مسلم على البخاري.

فله على كلِّ عبدٍ عبودية في حالِ العافية، وعبودية في حالِ البلاء، فعليه أن يحسنَ صحبةَ العافية بالشكر، وصحبةَ البلاء بالصبر.

فالمرءُ يسألُ اللهَ العافية، فإذا نزلَ البلاءُ كانَ على قسمين:

أ- بلاءٌ يُرجى زواله، فنسألُ اللهَ تعالى عندهُ العافية والصبر.

ب- وبلاءٌ لا يُرجى زواله - كموتِ أحدٍ - فهنا نسألُ اللهَ الصبر.

وإذا كانت ساحةُ العافية أوسعَ للصبرِ من ساحةِ البلاء، فإنه بعدَ نزولِ البلاءِ ليسَ للعبدِ أوسعُ من الصبر، وأما قبلهُ فالعافيةُ أوسعُ له.

تعريف العافية:

هي العيشةُ الرضيةُ الهنية، والسعادةُ الأبدية، والراحةُ الروحانية، لا عيشَ أنها منها، ولا لباسَ أحسنَ من لباسها، من أفضلِ النعم، وأنها العطاءُ والكرم، إذا فُقدتِ عُرِفَت، وإذا دامت جُهلَت.

العافيةُ تاجُ الأصحاء، وأنسُ السعداء، ومنةُ الصلحاء.

العافيةُ: السلامةُ الدائمةُ للأجسامِ والأديانِ والأمراضِ اللازمةِ والطارئةِ.

النبي ﷺ كان يُعلمُ أصحابه الدعاءَ بالعافية؛ فعن العباس بن عبد المطلب يقول: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، علِّمني شيئاً أدعو به، فقال: سلِ العفوَ والعافية. قال: ثم أتيتُهُ مرةً أخرى، فقلتُ: يا رسولَ الله، علِّمني شيئاً أدعو به، قال: فقال: يا عباسُ، يا عمَّ رسولِ الله ﷺ، سلِ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرة^(١).

فالعافية تُذهبُ القلقَ وهمومَ الحياة، وتُزيلُ الشقاءَ والعناء، فما سُئِلَ ربنا شيئاً أحبَّ إليه من سؤالِ العافية والمعافاة.

(١) الراوي: العباس بن عبد المطلب | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم: ٣٥١٤ | خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه الترمذي (٣٥١٤) واللفظ له، وأحمد (١٧٨٣).

العافية حصانةٌ من الفتن، ووقايةٌ من المحن، كما قال النبي ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ».

ورد في الحديث:

عَنْ سَالِمِ أَبِي النَّضْرِ، مَوْلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَكَانَ كَاتِبًا لَهُ، قَالَ: كَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَرَأَتْهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا، انْتَظَرَ حَتَّى مَالَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ^(١).

وإذا كانت ساحة العافية أوسع للصبر من ساحة البلاء، فإنه بعد نزول البلاء ليس للبعد أوسع من الصبر، وأما قبله فالعافية أوسع له.

(١) الراوي: عبد الله بن أبي أوفى | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٢٩٦٥ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح].



وصية الله - سبحانه - لنبية ﷺ في ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى:
 ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾^(١)، فما هو وعد الله - عز وجل - للصابرين؟
 أولها وأعظمها:

١. أن الله معك أيها الصَّابِرُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).
 والله لو تدبرناها حقًا، لوجدنا للصبر مذاقًا آخر، فكيف بك أيها الصَّابِرُ
 والله معك يُؤانسك، ويطمئنك، ويواسيك، ويُعينك، ويواليك، ويهديك، ويوقِّفك،
 ويؤيدك، ثم ينصرك؟!!

(١) [الروم: ٦٠]

(٢) [البقرة: ١٥٣]

(٣) [البقرة: ٢٤٩]

أولها وأعظمها: أَنَّ اللَّهَ مَعَك أَيُّهَا الصَّابِرُ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١)،
﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)

٢. فالعاقبة الأكيدة للصبر هي النصر، كما قال -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ
جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام: «واعلم أن النصر مع الصبر» (٤).

٣. ووعده الله -تعالى- الصَّابِرِينَ بمحبته، فقال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥)
فأين المحبون؟ (٥)

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله-: «فإنَّ محبةَ الله لِلْعَبْدِ هِيَ
أَجَلٌ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ، وَأَفْضَلُ فَضِيلَةٍ تَفْضَلُ اللَّهُ بِهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا
يَسَّرَ لَهُ الْأَسْبَابَ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ كُلَّ عَسِيرٍ، وَوَقَّعَهُ لِفِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ،
وَأَقْبَلَ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ إِلَيْهِ بِالْمَحَبَّةِ وَالْوِدَادِ» (٦).

فهل تخيلت حُبَّ الله تعالى لك بسبب الصبر؟ لو أيقنت بهذا حقَّ اليقين،
لتلذذت بالصبر.

كيف لا والصبر سبب محبة رب الأرض والسماوات، الذي هو على كل شيء
قدير؟! إنه قادر على أن يُزيل ما بك من هم.

٤. يعلم أن الصبر خير لك وأعظم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٧) .

(١) [البقرة: ١٥٣]

(٢) [البقرة: ٢٤٩]

(٣) [الأنعام: ٣٤]

(٤) ص ١٣ - كتاب شرح الأربعين النووية العباد - النصر مع الصبر والفرج مع الكرب.

(٥) [آل عمران: ١٤٦]

(٦) ص ٢٣٥ - كتاب تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن.

(٧) [النحل: ١٢٦]

عندها ستختار ما اختاره الله تعالى لك وترضى.

إذن، لماذا عندما يشكو لك أحدكم مشكلته، فتقول له: اصبر، ينظر إليك بتعجب واستغراب، وكأنك تتهرّب من الجواب، ولا يعلم أن نصيحتك له بالصبر خير خطاب؟! **خير خطاب!**

وليته كما يشكو لمن خلق من تراب، يشكو بصدق إلى العزيز الوهاب.

٥. أن يجعلهم أئمة في الدنيا والدين، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَيْتِنَا يُوْقِنُونَ ﴾ (١)

قال الفضيل: «إن الله - عز وجل - ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير» (٢).

سئل الإمام الشافعي رحمه الله: أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى؟ فقال: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكّنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة (٣).

وهذا صحيح، فلا تجد عالمًا ولا ناجحًا ولا قائدًا ولا تاجرًا إلا وخلفه قصة صبر عظيمة.

وقديمًا قالوا: من صبر ظفر.

ولنا في نبي الله يوسف - عليه السلام - أسوة حسنة حين قال لإخوانه وهو عزيز مصر: ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤)

(١) [السجدة: ٢٤].

(٢) الإحياء، ٤ / ١٣٩.

(٣) الفوائد، ٢٦٩.

(٤) [يوسف: ٩٠].

٦. ولن يضرُّك أيُّها الصَّابِرُ كيدٌ أحدٍ كائنًا من كانَ إذا اتَّقيتَ اللهَ تعالى:
﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٣) ﴿١﴾

٧. وبشر الصابرين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا
إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (٢)

اسمعوا البشري من ربكم: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ (٣) .

من هم الصَّابِرُونَ؟

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (٤) .

نبشِّرُهُم بماذا؟

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (٥)، ثناءً من الله تعالى عليهم في الملأ الأعلى؛

بسبب صبرهم.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ (٦)، لهم في الدنيا وفي القبر ويوم القيامة.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (٧) ؛ لم يكن هذا الخطاب الذي خاطبه ربنا

سبحانه وتعالى للصابرين خطاباً عابراً فحسب، بل كان وراء هذا الخطاب العظيم
جزاءً كبيراً جداً للصابرين، وكان هذا الخطاب من أجمل وأروع ما قيل في جزاء
الصابرين.

(١) [آل عمران: ١٢٠].

(٢) [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

(٣) [البقرة: ١٥٥].

(٤) [البقرة: ١٥٦].

(٥) [البقرة: ١٥٧].

(٦) [البقرة: ١٥٧].

(٧) [البقرة: ١٥٧].

أولاً: لأنه خِطَابُ ربنا سبحانه وتعالى لعباده الصابرين، ومن أصدق من الله حديثاً؟

ثانياً: كان كلاماً رائعاً وتشويقاً جميلاً، يجعلُ الصابِرَ في طمأنينة وراحة وشوق جميل للقاءِ أجرٍ عظيمٍ من عند ملكٍ عظيمٍ، وهذا ما يجعل الصابِرَ يزدادُ تحمُّلاً وصبراً على بلاءِ الله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ بعدَ هذا الصبرِ هناك أجرٌ عظيمٌ لا يعلمه إلا اللهُ.

ولم يقل ربنا - سبحانه وتعالى- أنَّ هذا الصابِرَ له كذا وله كذا؛ أي لم يُحدد ربنا سبحانه وتعالى شيئاً مخصّصاً لهذا الصابِرِ المحتسب، بل قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(١)؛ أي: بشر الصابرين أن لهم ما يسرهم وما يفرحهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

لقد امتحن ربنا - سبحانه وتعالى- عباده وقال لهم في كتابه الكريم:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)
فقد امتحنهم ربنا سبحانه وتعالى - كما ذكر- بالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، ولم يكتفِ ربنا - سبحانه وتعالى- بأن امتحنهم بهذا البلاء، بل حَصَرَ لهم مفاجأة عظيمة وأجرًا عظيمًا، وحتى عندما أخبرهم في كتابه الكريم أنَّ لهم أجرًا عظيمًا وأنَّ لهم ما يسرهم وما يفرحهم من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، لم يخبرهم بهذا الجزاء؛ لأنه جزاءٌ عظيمٌ قد لا يستطيع الإنسانُ تصور هذا الجزاءِ وتصور عِظَمِهِ؛ لذلك أخفى ربنا - سبحانه وتعالى- هذا الجزاء عن أصحابه؛ لِشِدَّةِ عِظَمِهِ، وقال اكتفاءً بالتبشير: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)

(١) [البقرة: ١٥٥]

(٢) [البقرة: ١٥٥]

(٣) [البقرة: ١٥٥].

لقد صبرَ هذا العبدُ الصابرُ على الخوفِ الذي أصابه وأصابَ أهله وعائلته وقومه، وصبرَ على تحملِ الجوع، وصبرَ على تحملِ رؤيةِ أولاده وأهله الجياع، والذين كادوا أن يموتوا جوعاً، بل منهم من ماتَ أمامه من الجوع.

ومع هذا كلِّه، كانَ صابراً مُحتسباً للأجر، فتحملَ هذا البلاء، وصبرَ عليه، وأوكلَ أمره لله؛ فهو وليه وهو ناصره.

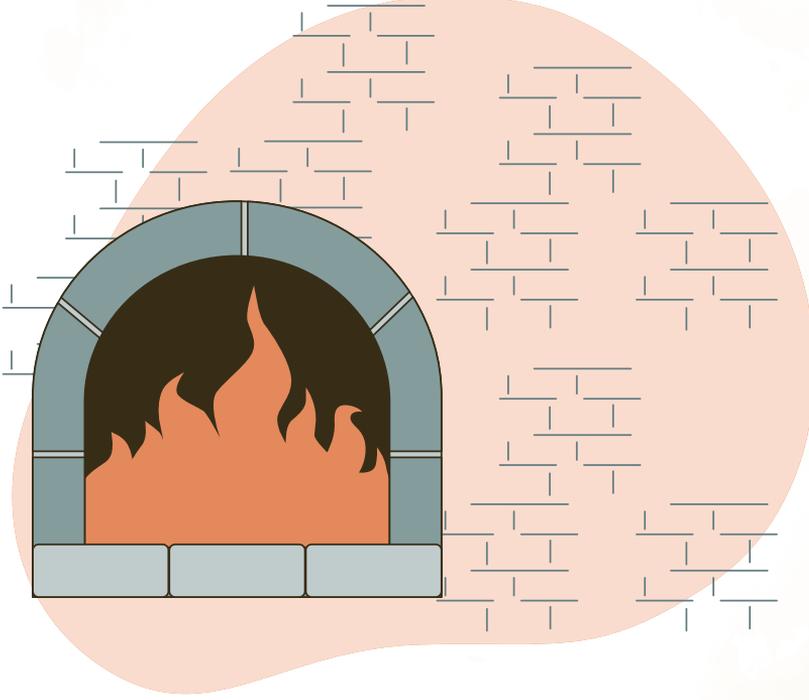
وصبرَ أيضاً على نقصِ الأموال، وصبرَ على نقصِ الأنفس، وصبرَ على نقصِ الثمرات.

لكنَّ صبره هذا لم يذهب هباءً منثوراً، ولم يذهب تبعه وتحمله هذا على لا شيء، بل كانَ له أجرٌ عظيم لا يعلمه إلا الله، وهذا جزاء الصابرين.

أسألُ الله العظيم أن يجعلني وإياكم من عباده الصابرين، وأن يجعلنا ممن يستحقون هذا الأجر العظيم، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

اصبرَ أيُّها المريضُ، اصبرَ أيُّها الفقيرُ، اصبرَ أيُّها المُبتلى، اصبرَ أيُّها المظلومُ، اصبرَ أيُّها الإنسانُ، فهكذا هي الحياة: صبرٌ وإيمانٌ.

فيا من له أبٌ أو أمٌّ يُسيئونَ إليه؛ اصبر، ويا من له زوجةٌ تُزعجه؛ اصبر، ويا من له أولادٌ يُحزنونه؛ اصبر، ويا من له أقاربٌ يقطعونه؛ اصبر، ويا من له جارٌ يُؤذيه؛ اصبر، ويا من له رئيسٌ في العملِ يظلمه؛ اصبر.



لا بُدَّ أن يرفقَ العبدُ بحاله ويرفقَ بأهل بيته وبالناسِ وبجميع من يتعاملُ معهم،
ولن يرفقَ بحاله إلا إذا صبر.

من ينظرُ في حالِ النَّاسِ اليومَ يجدُ نقصًا في الصَّبْرِ واستعجالًا ظاهرًا في جميع
المجالاتِ في الأمورِ الدِّينيةِ والدُّنيويةِ، فهذا يَعَجَلُ في صلاته ثُمَّ ينصرفُ سريعًا إلى
دُنياه، وهذا يَعَجَلُ في الدُّعاءِ ويريدُ سريعًا أن يراه، وهذا يريدُ أن يتغيَّرَ الواقعُ في
شهرٍ أو شهرين، وهذا يُريدُ في يومٍ أن تصلحَ أمورُ المسلمين.

قال ابن القيم: (والفرق بين رقة القلب والجزع أن الجزع ضعف في النفس، وخوف في القلب، يمدّه شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر... فمتى علم أن المقدر كائن - ولا بُدَّ - كان الجزع عناءً محضاً ومُصيبة ثانية.

أما رقة القلب فإنها من الرحمة، وقد كان رسول الله ﷺ أرقّ الناس قلباً، وأبعدهم من الجزع؛ فِرقة القلب رافة ورحمة، وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا، قد غشيه دخان النفس الأمّارة، فأخذ بأنفاسه، وصيق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن صيق الأرجاء، مظلم المسلك، فالحصار القلب وضيقه يجعله يجزع من أدنى ما يُصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتأ من محبة الله وإجلاله، رَقَّ وصارت فيه الرافة والرحمة، فتراه رحيماً رقيق القلب بكلّ ذي قرى ومسلم، يرحم النملة في جحرها، والطير في وكره، فضلاً عن بني جنسه؛ فهذا أقرب القلوب من الله تعالى).



لكلِّ إنسانٍ أسبابٌ محددةٌ تجعله يشعرُ بنفاذِ صبره، وهذه الأسبابُ مختلفةٌ من شخصٍ إلى آخر، ومن الأمثلةِ عليها ازدحامُ الشوارع، أو الأصواتُ المرتفعة، أو الأماكنُ المزدحمة.

وتظهرُ علاماتُ نفاذِ الصبرِ على الإنسانِ عادةً من خلالِ علاماتٍ جسدية، كشدِّ العضلاتِ، أو هزِّ القدمين، أو ارتفاعِ معدلاتِ نبضاتِ القلب، أو الانفعالِ والغضب، وغيرها. ويمكنُ الاستفادةُ من ظهورِ هذه العلاماتِ في تحديدِ أسبابِ نفاذِ الصبرِ.

بعدَ تحديدِ أسبابِ نفاذِ الصبرِ، يمكنُ التعاملُ مع كلِّ سببٍ على حِدَةٍ، ومحاولةُ التعاملِ معه ومراقبةُ حركاتِ الجسد، ومحاولةُ تشتيتِ الانتباهِ عن السببِ،

من خلال عدّة إجراءات، مثل التنفّس العميق، أو الوضوء، أو الجلوس على كرسيّ، أو تغيير الوضعية، أو التفكير للحظات.

— **التمرّن على الاستماع الفعّال:** يُعدُّ الاستماع الفعّال للآخرين من أهمّ مُحفّزات الصبر، فهو يُتيح للفرد فهم الآخرين وقراءة وجهات نظرهم بهدوء، كما أنّ ذلك يزيد التركيز على الفهم بدل التفكير في كيفية الرد، وبالتالي تجنّب العديد من مواقف نفاذ الصبر، وهو ما يجعل الفرد شخصاً أفضل، فالصبر من أجمل الصفات في الإنسان.

— **التمرّن تدريجيّاً على الصبر:** لا يُمكن التحوّل مباشرةً من شخصٍ عديم الصبر إلى شخصٍ صبور؛ ولهذا فإنّ العملية تحتاج إلى وقتٍ وتمرّن على العديد من مواقف نفاذ الصبر، وبدء محاولة تغيير النفس والتعامل مع هذه المواقف تدريجيّاً إلى أن يُصبح التعامل مع هذه المواقف بسيطاً بالنسبة للفرد الذي يُريد أن يُعوّد نفسه على الصبر.

— **تقبّل الظروف التي لا يُمكن تغييرها:** هناك بعض الظروف التي تقع وتكون خارج إرادة الإنسان، حيث لا يملك ما يفعله لتغييرها، مثل أن يجد نفسه عالقاً في أزمةٍ مروّيةٍ طويلة، ففي هذه الحالة لا يُمكنه فعل أيّ شيء غير التعامل مع الحالة كما هي؛ ولذلك فإنّ على كلّ شخصٍ يُريد أن يُصبح صبوراً، أن ينظر إلى الحالة التي هو فيها، ويبحث عن إمكانية حلّها، فإن لم يكن لها حلّ، فعليه تقبّلها والتعامل معها كما هي دون توتّر أو غضب.

ونحن في حياتنا اليومية بعيدون كلّ البعد عن الرقة والرفق في المعاملات، ونميل إلى الملل والسخط والجزع، فمثلاً عند إشارات المرور ترى الملل والضجر، وفي الطرّق ترى السُرعة والخطر، الكبير مُستعجل، والصغير مُستعجل، والرجل مُستعجل، والمرأة مُستعجلة، فيألي أين؟

مثال: فَمُ باختبارِ نفسك عند قيادتكَ على الطُّرُق، قد تتعرضُ خلالها لمواقف تكشفُ مدى قدرتكِ على تحملِ الآخريين وقياسِ مستوى صبرك، ما يجعلنا نقفُ لحظةً تأملٍ لمعرفةِ مدى قدرتنا على ضبطِ انفعالاتنا.

تسيرُ بمركبتك على الطريقِ وأنتِ ملتزمٌ بالسرعةِ القانونية، وأسرتكِ بجانبك، تتفاجأُ بقدمِ سيارةٍ مسرعةٍ من الخلف، لا يتركُ قائدها مسافةً أمان، ويستمرُّ في استخدامِ الضوءِ الأمامي القويِّ للمركبةِ من أجلِ إفساحِ الطريقِ له، وأنتِ تأخذُ المسارَ الأيمن، وأنتِ تشعرُ أنَّ هذا الطريقَ من حقك؛ لأنك تسيرو في طريقك أو هو بكلِّ سرعته يدخلُ عليك، وقد ترى أنه كاذ أن يصطدمَ بك، ولكن لم يحصل شيئاً من هذا، ولكنك غضبت ولم يُعجبك أسلوبه في السياقة!

وتقول: إنه سائقٌ متهور، أو لا يعلمُ كيف يسوقُ باحترام!

وقد عكَّرَ عليكِ مزاجك تلك اللحظة، ولكنَّ هذا الشخص قد يكونُ له ظرف طارئ، أو لديه اجتماعٌ مهم، قد يخسرُ وظيفته، أو يريدُ أن يلحقَ قبل أن تُغلقَ الصيدلية لأنه يريدُ شراءَ دواءٍ لطفله، وفي هذه اللحظة يتمنى من أحدِ السائقين أن يفتحَ له الطريق؛ حتى يصلَ إلى المخرجِ الذي في الطرفِ الأقصى من الطريق.

قد تمرُّ أنتِ في يومٍ من الأيامِ بمثلِ هذا الظرفِ الطارئ، وقد تكونُ مُستعجلاً، وتريدُ ذلك المخرجَ الوحيد، ولكنَّ الشارعَ مزدحمٌ والكلُّ لا يريدُ أن يفسحَ الطريق، والكلُّ مُستعجلٌ، وأنتِ تتمنى أن يفتحَ أحدهم لك الطريق.

ماذا لو فتحَ لكِ المجالَ للعبور؟ ماذا سيكونُ شعورك؟ توقَّفِ وترككِ تمضي.

سترى أنَّ هذا الإنسان عندهُ أخلاق، وفي قلبك تشكره، وتتمنى أن تكونَ مثله في تعاملك مع الآخريين، تفتحُ لهم الطريق، تُفسحَ لهذا المجال، وتُعطي هذا مجالاً.

الذي يريدك أن تبتعدَ من أمامه؛ ابتعد عنه، والذي يمشي أمامك ببطء؛ اتركه وانعطف عنه دونَ غضبٍ وانزعاجٍ وعدمِ تحملٍ وحُكمٍ على الآخريين؛ ربما يكونُ كبيراً بالسن، أو أمامه شخصٌ يريدُ العبور.

تعامل مع الآخرين كما تُريدهم أن يُعاملوك، كُلُّ لَهُ قِصَّةٌ يَعِيشُهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهَا.
حياتنا التي في الطريقِ صورةٌ مصغرةٌ لطبيعةِ تعاملاتنا مع الآخرين، ففي هذه
الحياةِ يأتي من يُزعجك، ويقطع عليك، ويُعطِّلك.

كُلُّ تعاملاتنا تحتاجُ إلى التحلي بأخلاقِ الصبر، والمستفيدُ الأولُ من أخلاقِ
الصبر هو أنت؛ حياتك ستصبحُ أكثرَ هدوءَ وراحة.

نحنُ اليوم في أَمَسِّ الحاجةِ للصبر؛ كي نعيشَ سُعداءَ مطمئنين في عصرنا هذا
المزعج، والذي لا تسمعُ فيه إلا ما يُحزن، لكنَّ القلوبَ المُطمئنةَ بذكرِ اللهِ تعيشُ
في حالٍ آخر، فلا بُدَّ من الصبرِ والتصبر؛ لأنَّ الصبرَ هو العطاءُ الواسعُ الذي
كُلُّهُ خير، كما قال ﷺ في الحديث:

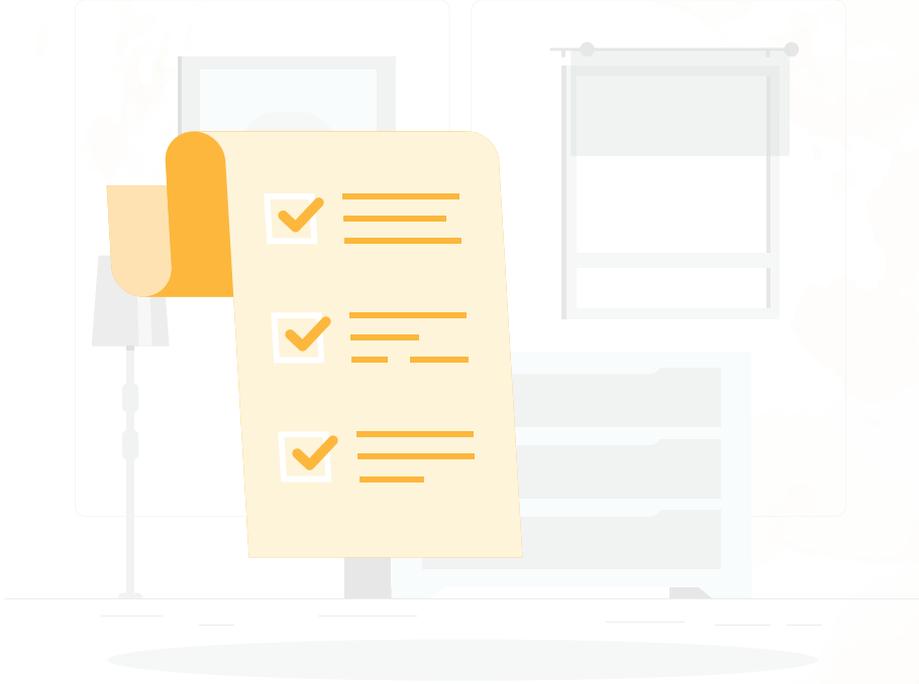
«مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

فإذا كان الإنسان قد منَّ الله عليه بالصبر؛ فهذا خيرٌ ما يُعطاهُ الإنسان، وأوسعُ
ما يُعطاه؛ ولذلك تجدُ الإنسانَ الصبورَ لو أُوذِيَ من قِبَلِ الناسِ، لو سمعَ منهم
ما يكره، لو حصلَ منهم اعتداءً عليه، تجدهُ هادئَ البالِ لا يتصلبُ ولا يغضب؛
لأنه صابرٌ على ما ابتلاه اللهُ به؛ فلذلك تجدُ قلبه دائماً مطمئناً ونفسه مُستريحة.

الشدائدُ ستزول، ولكنها ستهديك: وعياً أكبر، كشفًا لحقائق، فهمًا واسعًا
للأمور، تقديرًا للنعمِ بشكلٍ أكبر، نُضجًا أكثر، وتصبحُ أكثرَ رفقًا بنفسك
وبغيرك.

ولو أبصرَ المؤمنُ ما خفيَ من لطفِ ربه، وعرفَ أنَّ أقدارَ اللهِ لها حكمة،
حاولَ إدراكها.

خُلِقَ الصبرُ لتعلموه، ودربوا النفسَ عليه.



الإيمان بأنَّ هذه الدنيا دارُ امتحانٍ وابتلاء، ولا يوجد بيتٌ لم تدخله مُصيبة، وليست الدنيا دارُ نعيم؛ فالنعيمُ المُقيمُ هناك في الجنة.

التعلق بالله وحده في كشفِ الضّرِّ والاستعانةُ به لا بأحدٍ سواه، فإنَّ ذلك يملأ النفسَ قوةً وعزّةً وصبراً على البلاء.

١. شغلُ القلبِ الحزينِ بالدواءِ الشافي (القرآن) تلاوةً وتفسيراً وحفظاً، وفق جدولٍ مُنظّمٍ مُخطّطٍ له؛ ففيه الشفاءُ والراحةُ لما يدورُ في الصدرِ من وساوسٍ وأفكارٍ، وقضاءِ الوقتِ في تعلمه وتدبره يُخلِّقُ بالقلبِ بعيداً عن الحزنِ والفقدِ إلى سماءِ الطمأنينةِ والثباتِ.

٢. شكرُ الله على نعمه، وعدمُ التحسرِ على المفقودِ، ويكونُ ذلك بالنظرِ إلى نعمِ الله بالامتنانِ وتكرارِ الحمد؛ حتى تمتلئَ النفسُ بشعورِ الامتنانِ لله وتغشاها السكينة.

٣. اشغل وقتك بالنافع المفيد؛ مارس هوايةً تتطلب وقتًا وحركة، مثل: (المشي، الرياضة، الزراعة، الفن، الطبخ، ...).

٤. السؤال؛ اسأل الله كثيرًا في كلِّ وقت، وخصوصًا في أوقاتِ استجابة الدعاء، وكرر أدعيةَ الهمِّ والحزنِ بتدبيرٍ وخشوعٍ وثقةٍ بأثرها على نفسك كما وعد الله.

٥. تفرغ لعبادة الله، ابتعد قليلًا عن الناس والأجهزة، وخصص وقتًا محددًا للعبادة؛ تطبيقًا لما جاء في الحديثِ القدسي: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمَلًا صَدْرَكَ غِنَى وَأَسَدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفَعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَمَ أَسَدَّ فَقْرَكَ»^(١).

٦. فالتفرغ لعبادة الله يشفي الصدرَ من الخوفِ والقلق، ويملأ النفسَ بالسكينة.

٧. أدخل سرورًا على قلبِ مسلم (أكرمِ والديك، أسعدِ طفلًا أو خادمًا أو ضعيفًا).

٨. تعبّد الله بترقبِ الفرجِ وتعديلِ الحالِ ثقةً به واعتمادًا عليه، وتأمل في خلواتك قولَ الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»^(٢).

أحسن الظنَّ بالله؛ فهو برٌّ رحيمٌ لطيفٌ خبير؛ لتسمو روحك وتعلو في الدنيا والآخرة.

وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم من الصابرين، ويرزقنا وإياكم الهدى والسدادَ والثباتَ في الأمر، وأن يُعيننا وإياكم على الرشد، ويؤفّقنا لما يُحبُّ ويرضى، وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبه.

(١) المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم: ٢٤٦٦.

(٢) البخاري، الصفحة أو الرقم: ٧٤٠٥.

المراجع

أوسعُ العطاء، الشيخ هلال الهاجري.

الدررُ السنية - الموسوعة الحديثية.

نعمةُ العافية، الشيخ السيد طه أحمد.

تفسيرُ الحديث: (وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)،
الشيخ خالد سبت.

كيفُ أَعُوذُ نفسي على الصبر؟ موقع موضوع.